تفسير الأحـــلام

للعلامة سجموند فرويد
سلسلة محاضرات ألقاها فى فينا
للأستاذ محمد جمال الدين حسن

بعض الفروض التمهيدية وطريقة التفسير :

كان العلماء إلى ما قبل ظهور علم التحليل النفسى يفسرون الحلم على أنه ظاهرة جسمية تنشأ عن اضطراب فى المعدة أو ما شابه ذلك من مؤثرات عضوية . أما نحن فسنفرض أن الحلم ظاهرة عقلية لا جسمية . وقد لا يكون لهذا الفرض ما يبرره ، ولكن ليس هناك ما يمنعه أيضاً ، فالحلم إذا كان ظاهرة جسمية لا يهمنا فى شىء ولكنه يكون ذا فائدة لنا إذا كان ظاهرة عقلية . وعلى هذا فسنسلم بصحة هذا الفرض وسنرى من النتائج التى سنصل إليها إن كنا على خطأ أم على صواب . والآن ما هو الغرض من هذا البحث وإلى أى غاية توجه هذه الجهود ؟ إن غرضنا هو الغرض من كل بحث علمى ، أى الوصول إلى دراسة واضحة للظواهر الطبيعية وتكوين علاقة بينها وإخضاعها لسلطتنا على قدر الأمكان .

وعلى هذا فسنواصل بحثنا على فرض أن الأحلام ظاهرة عقلية ، ومعنى هذا أنها خيالات رآها الحالم أو كلمات تفوه بها أثناء النوم ولكنها لا تدلنا على شىء ولا نستطيع أن نفهم لها معنى .

لنفرض أنى تفوهت أمامكم بكلام غير مفهوم فما ذا أنتم صانعون ؟ ألا تسألوننى الأيضاح عما أريد ؟ أظن هذا هو الحل المعقول . فلم إذاً لانتبع نفس الطريقة فنسأل الحالم عن معنى حلمه ؟

تذكرون أننا سبق أن وجدنا أنفسنا فى مثل هذا الوضع (١) عند ما كنا نبحث فى زلات اللسان ، وقد بينت لكم أنه يجب

(١) يشير فرويد إلى المحاضرات التى ألقاها عن «سيكولوجية الأخطاء» وهى يبين فيها أن زلات القلم واللسان ليست فى الواقع هفوات تصدر عن الأنسان لا معنى لها وإنما هى حالات عقلية تنشأ عن عوامل نفسية مختلفة يمكن الوصول إليها بالتحليل النفسانى .

بحيث لا يحدك ضمير ولا وجدان ساعة بحران الشر واحتدام الضغينة فلكل وقت ، فكن للشر بقلبك كما تكون للخير بقلبك!

هكذا يسمم هذا النوع من الناس نفسك بشرة نفسه ، كما يسمم الثعبان دمك بلسعة نابه ومسموم لعابه ، فلا تمالك إلا أن تقىء وتهذى وتتلوى وتأتى بالحماقات والشناعات …

إنه يجذبك من عالم أحلامك السعيدة العليا إلى الحضيض الذى تتمرغ فيه وتتقلب عليه مع بنات الطين والظلام …

إنه بوق الشيطان ينفخ فيه على أفاعى الشر والضغينة فى الحجرات المظلمة من نفسك كلما أوشكت أن تموت ؛ لتحيا دائماً معك لأنها أعظم جنوده التى أرصدها لحرب ذلك الطفل العبقرى الوديع : الحب !

وإن هذه الأفاعى إذا صحت ونشطت فلن تأكل فى الحقيقة إلا فلذات قلبك ولن تشرب إلا دمك … ولقد جعلت من الذين أوسعوا لها من صدورهم مسمومى الإدراك مطموسى الإحساس بجمال الوجود ولذة الحب والرحمة .

إنها كريهة الدبيب مغتالة لأفضل ما فى النفس ، مثيرة للدم الأسود المحموم .

إن الشر يجب ألا يكون إلا لدفع الشر الذى لا يُدفَعُ بالخير . فيجب على القديس الحليم أن يكون عنيفاً شديداً مع الذين لا يرون المثل الأعلى إلا فى الشر والعنف … أما أن يتخذ ذخيرة وغذاء تجتره النفس انسياقاً مع الغرائز القديمة ، واستجابة للوحش الذى فينا ، وتنمية لنوازعه وتنقيباً عن سفالاته المطمورة فذلك هو الهدم لدعائم الحضارة والارتداد والانتكاس إلى الوحشية التى تطمس الآفاق التى رأتها الإنسانية على ضوء السكينة النفسية والحب المتبادل .

فليُيمن الله محبى الخير على الحرب الدائرة بينهم وبين هذه النفوس العريقة فى عالم الأذى …

وليحفظ رقة الخير وضمنه بين الشرور كما يحفظ حرير الورد من جوار الأشواك المسنونة المُشْرعة التى تهدده دائماً بالتمزق وتؤذى من يريد أن ينعم به نعمة خالصة .

عبد المنعم خلاف

علينا فى هذه الحالة أن نسأل صاحب الزلة عما يقصده أو ما كان يفكر فيه حتى نستطيع أن نصل إلى الدوافع الخفية التى دفعته إلى ارتكاب هذه الزلة ، كما بينت لكم أن التحليل النفسى مبنى كله على هذه الطريقة ، أى ترك الشخص الذى نحلله يجيب بنفسه على مشاكله . وعلى هذا فالحالم يجب عليه أن يفسر لنا حلمه بنفسه

ولكن الأمر ليس هنا بالسهولة التى نظن ، ففى حالة الزلات كانت هذه الطريقة تنجح فى كثير من الأحيان ، ولكن فى أحيان أخرى كان الشخص المستجوب يرفض الإجابة عن شىء بل كان يرفض الجواب الذى نقترحه عليه من استنتاجاتنا فى غيظ وحنق . أما فى حالة الأحلام فليس هناك أمثلة من النوع الأول ، فالحالم دائماً يقول إنه لا يعلم شيئاً عن حلمه ، وهو لا يستطيع أن يرفض تفسيرنا لأنه ليس لدينا ما نقدمه له . فما دام لا يعلم شيئاً ونحن لا نعلم شيئاً ومن المؤكد أن شخصاً ثالثاً لا يعلم شيئاً كذلك ، فلا مطمع لنا إذاً فى الوصول إلى حل موفق . أعلينا عندئذ أن نقلع عن هذه المحاولة ونقر بعجزنا ؟ إذا كان منكم من يرغب فى ذلك فليفعل . أما إذا كنتم راغبين فى مواصلة البحث فى استطاعتكم أن تتبعونى فسأريكم أن الشخص الحالم فى الواقع يعلم معنى حلمه ولكنه لايدرى أنه يعلم وعلى هذا يظن أنه لايعلم

أظن أنه من المحتمل أن تلفتوا نظرى عند هذه النقطة إلى أننى قد عدت إلى تقديم فرض آخر ولما يمض على تقديمى الفرض الأول وقت طويل ، وأننى بعملى هذا قد بعدت عن جادة الصواب ودقة البحث ولكنى أوجه نظركم إلى أنى لم أجىء هنا لأتظاهر أمامكم بالشعوذة فأقدم إليكم حقائق سهلة مستساغة بينما أخفى عنكم الصعوبات والشكوك حتى تطمئن نفوسكم إلى أنكم قد تعلمتم شيئاً جديداً . وعلى هذا أقول لكم إنى فعلا قد فرضت فرضين متداخلين فمن يجد منكم فى هذا مشقة أو عدم دقة فما عليه إلا أن يتركنا فى خير . ولكنى أوجه نظركم إلى أن هذين الفرضين ليسا على درجة واحدة من الأهمية . فأحدهما وهو القائل بأن الأحلام ظاهرة عقلية هو الفرض الذى نأمل فى إثباته عن طريق النتائج التى سنصل إليها . أما الفرض الآخر فقد سبق إثباته فى مجال مختلف وأنا فى الواقع لم أعمل أكثر من أن سمحت لنفسى باستعادته فى بحثنا هذا . وهذا المجال المختلف الذى أقصده هو التنويم المغناطيسى فقد شاهدت برنهيم (Bernheim) عام ١٨٨٩ فى نانسى وهو يقوم بتجاربه على رجل من المدينة نومه تنويماً مغناطيسياً ، وعند ما استيقظ الرجل بدا لأول وهلة أنه لا يدرى شيئاً عما قام به أثناء النوم وقد ادعى أنه لا يستطيع أن يتذكر شيئاً ، غير أن برنهيم ألح عليه فى السؤال مؤكداً له أنه يعلم كل شىء وأنه لو أجهد نفسه قليلا لاستطاع أن يتذكر كل ما حدث له . وما كان أشد دهشتنا عند ما بدأ الرجل فعلا يتذكر شيئاً فشيئاً بعض ما حدث له أثناء النوم ، وكلما تذكر شيئاً اشتدت ذاكرته فتذكر أشياء أخرى حتى استطاع فى النهاية أن يتذكر بالضبط كل ما قام به وهو نائم . ألا يصح لنا إذاً أن نستنتج من هذا أن هذه الذكريات كانت فى عقله من مبدأ الأمر ولكنها كانت فقط صعبة المنال ؟ فهو لم يكن يدرى أنه يعلم بها ولكنه كان يعتقد أنه يجهلها . وهو فى هذه الحالة يشبه الشخص الحالم تمام الشبه . والواقع أن هناك علاقة واضحة بين التنويم المغناطيسى والنوم الذى هو شرط أساسى للحلم . فالتنويم المغناطيسى يطلق عليه فعلا النوم الصناعى ، فنحن نقول للشخص الذى نريد أن ننومه مغناطيسياً : « نم ! » وما نوعز به إليه وهو نائم يمكن مقارنته بالأحلام فى حالة النوم الطبيعى . فالحالة العقلية واحدة فى الاثنين ، فكما أننا فى النوم الطبيعى نقطع كل صلة تربطنا بالعالم الخارجى ، فكذلك نفعل فى حالة التنويم المغناطيسى فيما عدا الشخص الذى يقوم بتنويمنا والذى نبقى معلقين به .

أظن من الممكن الآن أن نعود إلى عملنا ونحن أكثر ثقة من ذى قبل . رأينا إذاً أن من المحتمل جداً أن الحالم يعلم شيئاً عن حلمه ، ولكن المسألة هى كيف يمكننا أن نسهل له الوقوف على هذه المعلومات وإعطائها إيانا ؟ الطريقة التى سنتبعها هى أن نسأل الحالم عن معنى حلمه وكيف حلم هذا الحلم ، والكلمات التى يجيب بها يجب أن تؤخذ على أنها الأيضاح المطلوب بغض النظر عن كونه يظن أنه يعلم أو لا يعلم شيئاً عن الحلم .

أظن هذه الطريقة بسيطة جداً ، ولكنى مع هذا أخشى أن تثير غيكم معارضة شديدة فتصيحون : « فرض ثالث ! وهو أبعد احتمالا من سابقيه ! أتعنى أننا إذا سألنا الحالم عن الأفكار التى تتوارد على خاطرنا فأجابنا على الفور فما علينا إلا أن نأخذ إجابته

هذه على أنها الايضاح المطلوب ؟ ولكن من المؤكد أنه قد لا يجد ما يجيب به على الأطلاق أو قد تتوارد على خاطره أفكار يعلم بها الله . إنا لا نستطيع أن نتخيل على أى أساس بنيت هذا الأمل ، فهو فى الحقيقة يتطلب اعتماداً أكثر من اللازم على العناية الإلهية فى الوقت الذى نحن فيه أحوج ما نكون إلى نفاذ البصيرة والمقدرة على النقد . وفضلا عن ذلك فالحلم لا يتكون من عنصر واحد كزلة اللسان ، ولكنه يتكون من عناصر كثيرة ؛ فأذا كان الأمر كذلك ، فعلى أيها يمكننا الاعتماد ؟ » .

أظن أنكم على حق فى جميع النقط الغير أساسية . فالحلم حقاً يختلف عن زلة اللسان من ناحية تركيبه من عناصر كثيرة كما أنه يختلف عنها من نواح أخرى كذلك ، وهذه الاختلافات كلها يجب أن تراعى عند التحليل . ولذا فأنى أقترح عليكم أن نقسم الحلم إلى عناصره المختلفة وأن نختبر كل عنصر على حدة ، وبذا نكون قد أعدنا التشابه الذى بينه وبين زلة اللسان . وأنتم كذلك على حق عند ما تقولون إن الحالم عند ما يستجوب عن عنصر من عناصر حلمه قد يجيب بأنه لا يجد لديه أفكاراً تتعلق به ، وهناك حالات نكتفى فيها بهذا الرد قد أدلكم عليها فيما بعد . أما فى أغلب الأحيان فيجب علينا أن نناقضه وأن نلح عليه فى الجواب مؤكدين له أن لابد من وجود فكرة ما لديه وسنرى أننا كنا على صواب ، فسيبدأ بقوله : « إن هذا يذكرنى بشىء حدث لى منذ وقت قريب ! » أو « إن هذا حدث لى بالأمس ! » وسنرى من هذا أن الأحلام ترتبط ارتباطاً وثيقاً بآثار اليوم السابق . وأخيراً قد يستطيع الحالم إذا اتخذ الحلم نقطة ابتداء أن يصل إلى تذكر حوادث من الماضى البعيد .

أما من حيث النتيجة العامة فأنتم على خطأ . فأذا كنتم تحسبون أن اعتبار الأفكار الأولى التى ترد على خاطر الحالم كجواب عما نسأل عنه مسألة اختيارية بحتة ، وإذا كنتم تحسبون أن هذه الأفكار قد تكون هوائية لا علاقة لها بما نحن فى صدد البحث عنه ، وأنها لا تدل إلا على ثقتى العمياء فى العناية الألهية إذا توقعت شيئاً آخر ... إذا كنتم تحسبون هذا فأنتم على خطأ مبين . وهذا الخطأ راجع إلى الاعتقاد الراسخ فيكم بأن القوى النفسية حرة غير مقيدة فى اختيارها وهذا اعتقاد غير علمى ، لنا يجب على أن أطلب منكم أن تنظروا بعين الاحترام إلى هذه الحقيقة الواقعة : وهى أن فكرة واحدة فقط ولا شىء غيرها هى التى تخطر على بال الحالم عند ما يستجوب عن حلمه .

ولما كانت هذه النقطة على درجة كبيرة من الأهمية ، لذا أسألكم أن تلتفتوا إليها التفاتاً خاصاً . فعند ما أسأل شخصاً عما يخطر على باله بالنسبة لعنصر ما من عناصر حلمه فأن ما أطلبه منه هو أن يستسلم لعملية الترابط المطلق « Frec association » وهذه العملية تحتاج إلى حالة من الانتباه تختلف اختلافاً بيناً عن حالة التروى بل هى فى الواقع تعوقها . وبعض الناس يتهيأ لهذه الحالة فى سهولة ويسر ، والبعض الآخر يلاقى فى ذلك عناء كبيراً وعدم استعداد غير معقول . وقد يحسب المرء أن عملية الترابط المطلق التى تنشأ عند ما نطلب من شخص ما أن يفكر فى اسم خاص أو عدد ما تكون أكثر حرية ويكون لدى الشخصين فرصة أكبر للاختيار ؛ ولكن الواقع أنه يمكن أن نثبت أنه فى كل حالة توجد عوامل عقلية خفية هى التى تحدد نوعى الترابط ، وهذه العوامل تكون مجهولة لدينا فى اللحظة التى تبدأ فيها عملها ، ولتوضيح ذلك أضرب لكم المثل الآتى :—

حدث فى يوم من الأيام بينما كنت أعالج شاباً أن ذكرت له شيئا عن هذا الموضوع وأكدت له أنه على الرغم من الحرية الظاهرة فى الاختيار فى مثل هذه الحالات فأننا فى الحقيقة لا نستطيع أن نفكر فى أى اسم لا يمكن أن نثبت أن الظروف المحيطة بالشخص الذى نقوم معه بالتجربة ، وسجيته والحالة التى كان عليها هى التى تحدد هذا الاسم . ولما كان بطبعه ميالا إلى الشك فقد عرضت عليه أن يقوم بالتجربة فى التو واللحظة . وقد سهلت له الأمر بأن طلبت منه أن يفكر فى اسم امرأة من صاحباته لما كنت أعلم عن علاقاته المتعددة بكثير من الفتيات والنساء . ولكنه لدهشتى ، أو لدهشته على الأصح ، لم يعثر على الفور بسيل من الأسماء ، وإنما ظل ساكتاً مدة ثم اعترف بأن الإسم الوحيد الذى خطر على باله فى هذه المدة هو ألبين Albine ولكن الأغرب من ذلك أنى عند ما سألته ما علاقتك بهذا الاسم وكم من النساء تعرفت به ؟ أخبرنى أنه لا يعرف أحداً بهذا الاسم وأن لا أفكار لديه يربطها به . وقد يظن المرء أن التجربة قد فشلت ،

ولكن لا ، فقد تم التحليل ولسنا فى حاجة إلى أفكار أخرى . فالشاب نفسه كان أشقر بشكل غريب ، فكنت فى حديثى معه أثناء التحليل أداعبه بقولى له albino (وهو اسم الرجل الأبيض الوجه والشعر) وعلاوة على ذلك فقد كنا فى هذا الوقت منهمكين فى تحليل العنصر النسوى فى طبيعته . وعلى هذا فقد كان هو نفسه هذه « المرأة » التى شغلته فى هذا الوقت أكثر من أى امرأة أخرى

وكذلك الحال فى الألحان التى يترنم بها الأنسان فى أوقات فراغه فقد نستطيع إذا حللناها أن نصل إلى مصدرها ومعرفة الأفكار التى كانت تشغل عقلنا فى هذا الوقت من غير أن نحس بها

فإذا كانت الأفكار الحرة التوارد مقيدة هذا التقييد فإننا نكون على حق إذاً عندما نستنتج أن الأفكار التى تتوارد نتيجة لفكرة محركة (Stimiluo idea) واحدة تكون كذلك مقيدة غير مطلقة . وقد أثبتت التجارب كحقيقة واقعة أنها لا تكون متعلقة بالفكرة المحركة فحسب ، بل إنها كذلك تعتمد على ألوان من التفكير وضروب من المؤثرات القوية (أو العقد كما نسميها) لا نعلم عنها شيئاً فى ذلك الوقت ، أو بعبارة أخرى تعتمد على نشاط لا شعورى .

وقد اتخذ الترابط الذى من هذا النوع أساساً لتجارب عديدة أفادتنا كثيراً ولعبت دوراً ملحوظاً فى تاريخ حركة التحليل النفسى . فمدرسة وندت « Wundt » هى التى ابتكرت طريقة « تجربة الترابط » (association Œxperimeut) وفيها يطلب من الشخص الذى تجرى عليه التجربة أن يجيب على كلمة — محركة (Stimiluo — word) بأسرع ما يمكنه من كلمات رد الفعل (Reaction — words) ، وتلاحظ النقط الآتية أثناء التجربة: وهى الفترة التى تمضى بين النطق بالكلمة — المحركة وكلمات رد الفعل ، وطبيعة هذه الكلمات والأخطاء التى ترتكب عند إعادة التجربة إذا أمكن . أما مدرسة زيورخ تحت رئاسة بلوار وجنج (Bleuler and jung) فقد توصلت إلى تفسير رد الفعل فى تجربة الترابط بأن ثالث الشخص الذى تجرى عليه التجربة أن يلقى قليلاً من الضوء على الأفكار التى تبدو ذات أهمية وذلك بوساطة سلسلة أخرى من الأفكار المترابطة . وقد اتضح من هذه الطريقة أن هذه الردود الغير مألوفة لها اتصال وثيق بالعقد التى فى نفس الشخص . وقد كان هذا الاكتشاف هو الخيط الأول الذى ربط بين علم النفس التجريبى وبين التحليل النفسانى

أظن أنكم بعد سماع هذا الشرح ستقولون : « إننا نسلم معك أن هذه الأفكار المترابطة خاضعة لقيود معينة وليست محض اختيار كما كنا نظن من قبل ، كما أننا نعترف بهذا أيضاً فى حالة الأحلام ولكن ليس هذا ما يعنينا . إنك تقرر أن كل ترابط بعنصر من الحلم له دافع عقلى خفى لا نعلم عنه شيئاً ولكننا لا نستطيع أن نرى أى برهان على ذلك ، حقيقة إننا نتوقع أن تكون الأفكار التى تترابط بعنصر من الحلم ذات صلة وثيقة بالعقد التى فى نفس الحالم ولكن ما هى الفائدة ؟ إن هذا لن يساعدنا البتة فى تفهم معنى الحلم ولكنه يوصلنا فقط إلى بعض المعرفة عن هذه الأشياء المسماة بالعقد ، كما فى حالة تجربة الترابط ، ولكن أى علاقة بين هذه العقد وبين الأحلام ؟ » .

إنكم على حق ولكنكم تغفلون نقطة هامة وهى نفس النقطة التى منعتنى من اتخاذ « تجربة الترابط » نقطة ابتداء لهذا البحث . فنحن فى حالة التجربة أحرار فى اختيار الكلمة — المحركة ، وهى الشىء الوحيد الذى يتوقف عليه رد الفعل ، أما كلمات رد الفعل نفسها فتعمل كوسيط بين الكلمة المحركة والعقدة التى فى نفس الشخص الذى تجرى عليه التجربة . أما فى حالة الحلم فالكلمة المحركة تستبدل بشىء مشتق من حالة الحالم العقلية ، وهذا الشىء ينبع من مناطق مجهولة لديه ، وعلى هذا فمن المحتمل جداً أن يكون هو نفسه « إحدى مشتقات العقدة » فليس من الوهم إذاً أن ندعى أن الأفكار التى تترابط مع عناصر الحلم لم تحددها عقدة أخرى غير العقدة التى كونت هذا العنصر الخاص من الحلم وأنها فى نهاية الأمر ستوصلنا إلى اكتشاف هذه العقدة .

دعونى أضرب لكم مثلا آخر تتبينون منه أن الحقائق كثيراً ما تحقق صدق نظريتنا . وهذا المثل هو نسيان الأسماء المعروفة لدينا ومحاولة تذكرها ، فالذى يحدث فى هذه الحالة يشبه تمام الشبه ما يحدث فى حالة تحليل الأحلام . فلنفرض مثلا أنى نسيت اسماً ما ولكنى أشعر فى قرارة نفسى أنى واثق من معرفته فماذا أفعل ؟ لا شك أنى سأحاول أن أبذل كل جهد مستطاع فى محاولة تذكره ، ولكن التجارب علمتنى أن كثرة التفكير لا تجدى وأن فى استطاعتى دائماً أن أفكر فى اسم آخر أو أسماء عديدة أخرى غير الإسم الذى نسيته فإذا حدث أن خطر على بالى أحد